القاضي الجرجاني
الشاعر الناقد

د. علي محمد علي طلب

هو أبو الحسن علي بن عبد العزيز بن الحسن بن علي بن اسماعيل الجرجاني (المتوفى سنة ٣٩٢ هـ) ، وقد كان مولده بجرجان وهي مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان ، وقد عرف أهلها بالأخـــلاق الفاضلة ، وخرج منها جماعة من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين ، ومعظمهم له شهرة في ميدان العلم لا تنكر(٢) .

وقد تلقى في هذه البيئة المزدهرة بالعلم والأخلاق الحميدة ثقافته الأولى ، ثم رحل به أخوه لتلقي العلم بنيسابور وهو صغير غير بالغ (٣) وذلك لوفاة والده في هذه السن وكفالة أخيه له ، فلما أراد هذا الأخ أن يرحل في طلب العلم صحب معه أخاه الصغير ، واستمرت اقامة علي بن عبد العزيز الجرجاني في نيسابور حتى نهل من معين العلم والعلماء حقبة

---

(١) انظر في ترجمة القاضي الجرجاني : معجم الأدباء لياقوت ١٤/١٤ وما بعدها ، ط دار المأمون ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣٢٥/١ وما بعدها ط الميمنية ١٣١٠ هـ ، طبقـات الشافعية للسـبكي ٣٠٨/٢ وما بعدها ط الحسينية ٣٢٤ هـ ويتيمة الدهر للثعالبي ٣/٤ ، وما بعدها ط الصاوي ١٩٣٤ ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢٧١/٢ ط دار المعارف بالقاهرة. عصر الدول والامارات للدكتور / شوقي ضيف ص ٥٧٩ ط دار المعارف .

(٢) انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ٧٥/٣ ط السعادة بالقاهرة.

(٣) وفيات الأعيان ٣٢٥/١ .

من الزمان ، وتفتحت نفسه فى هذه البلدة لطلب العلم ، ورأى فيها مجالا للاغتراف من الثقافة بأوفى نصيب ، فمضى يجوب بالبـــلاد الاسلامية ليلتقى بالعلماء والأدباء ويأخذ عنهم ، وفى ذلك يقول الثعالبى فى يتيمه الدهر « وقد كان فى صباه خلف الخضر فى قطع عرض الأرض وتدويخ بلاد العـــراق والشام وغيرهما ، واقتبس مـــن أنواع العلوم والآداب ما صار به فى العلماء علما وفى الكمال عالما » (١) .

ولقد كانت ثقافة على بن عبد العزيز الجرجانى ثقافة عربية خالصة يدل على ذلك كتابه المشهور (الوساطة بين المتنبى وخصومه) فهو يدل على اطلاع واسع على دواوين الشعراء السابقين ، وعلم غزير باللغة والأدب ومعرفة بالغريب ، ومقدرة على فهم معانى الشعر ، وتمكن من النحو والعروض ، واتصال وثيق بما كتبه النقاد من قبل .

ولقد اتصل القاضى الجرجانى بالصاحب بن عباد الذى صـــــار وزيرا لبنى بويه وحل عنده محلا رفيع المكانة وأجله وأكرمه ، ولقد ولاه الصاحب بن عباد قضـــاء جرجان وهـــو منصب له قدره ومكانته آنذاك .

ولقد اشتهر القاضى الجرجانى باقامة العدل بين الناس حتى وجد المظلوم فى كنفه العدل والأمان ، وأخذ يذيع فى قومه وبلده علمه فكان يفد الناس ليغترفوا من علمه وأدبه ، وفى ذلك يقول ياقوت الحموى ، « وكان الشيخ عبد القاهر الجرجانى قد قرأ عليه ، واغترف من بحره ، وشمخ بأنفه بالانتماء اليه »(٢) .

---

(١) يتيمة الدهر ٣/٤ .

(٢) معجم الأدباء ١٦/١٤ .

وعن علاقته بالصاحب بن عباد يقول ياقوت « حدث الثعالبى عن أبى نصر التهذيبى قال : سمعت القاضى أبا الحسن على بن عبد العزيز يقول : انصرفت يوما من دار الصاحب قبيل العيد ، فجاءنى رسوله بعطر الفطر • ومعه رقعة بخطه فيها هذان البيتان :

يا أيهـا القاضى الذى نفسى له
مع قرب عهـد لقائه مشـتاقه
أهديت عطـرا مثل طيب ثنائه
فكأنمـا أهـدى له أخـلاقه

قال : سمعته يقـول : ان الصاحب يقسم لى من اقباله واكرامه بجرجان أكثر مما يتلقانى فى سائر البلاد ، وقد استعفيته يوما من فرط تحفيه بى وتواضعه لى فأنشدنى :

أكرم أخـاك بأرض مـولده
وأمـده مـن فعلك الحسـن
فالعـز مطـلوب وملتمس
وأعزه ما نيل فى الوطن » (١)

ومن حب الصاحب له ولاه قضاء الرى حيث يقيم الصاحب ليكون القاضى الجرجانى بجواره لا يفارقه أبدا ، وقابل القاضى الجرجانى هذا التقدير بحب ووفاء بالغين ، وترقى القاضى الجرجانى فأصبح قاضى القضاة بالرى ولم يعزله الا موته (٢) ، وذاع صيت القاضى فى كل أرجاء

---

(١) معجم الأدباء ١٤/٢٠ وما بعدها •
(٢) يتيمة الدهر للثعالبى ٤/٣ •

العالم الاسـلامى بعلمه وأدبه وخلقه الجم ، وعرف القاضى كثيرا من العلماء والشخصيات الهامة غير الصاحب بن عباد ومدحهم ، وكانت له منزلة عظيمة عندهم •

ومع هذه الشهرة التى نالها القاضى الجرجانى وهذا المنصب الكبير الذى تولاه ، الا أنه كان يحن الى العلم ، فليس له لذة الا لذة تحصيل العلم ، وليس له متعة الا مجالسة الكتاب ، وفى ذلك يقول (١) •

ما تطعمت لـذة العيش حـتى
صرت للبيت والكتاب جليسا
ليس شىء أعز عندى من العلم
(م) فلم ابتغى سواه أنيسا ؟
انمـا الذل فى مخالطـة النـاس
(م) س فدعهم وعش عزيزا رئيسا

وتوفى القاضى الجرجانى كما ذكر ياقوت الحموى (٢) بالرى يوم الثلاثاء لست بقين من ذى الحجة سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ، وهو قاضى القضاة بالرى ، وحمل تابوته الى جرجان فدفن بها ، وصلى عليه القاضى أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد ، وحضر جنازته الوزير الخطير أبو على القاسم بن على وزير مجد الدولة •

ويرجح الدكتور أحمد بدوى وفاته سنة ٣٩٢ هـ ويخالف ابن خلكان الذى ذكر أن وفاته سنة ٣٦٦ هـ (٣) للأسباب التالية (٤) :

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ١٤/١٩ وما بعدها •
(٢) المصدر السابق ١٤/١٥ •
(٣) وفيات الأعيان ١/٣٢٥ •
(٤) انظـر القاضى الجرجانى د/ أحمد بدوى ص ٢٤ وما بعدها ط دار المعارف •

١ ــ الراجح أن القاضي الجرجاني توفي بعد الصاحب بن عباد حيث يقول الثعالبي : « وتصرفت به أحوال في حياة الصاحب ، وبعد وفاته من الولاية والعطلة (١) وقد توفي الصاحب سنة ٣٨٥ هـ على الراجح .

٢ ــ ان الصاحب بن عباد قد صار وزيرا ابتداء من سنة ٣٦٦هـ(٢) أما قبل ذلك فقد كان كاتبا للأمير البويهي مؤيد الدولة ، وشعر القاضي في الصاحب بن عباد يصفه بالوزير حيث يقول مهنئا له بالبرء من المرض :

اذا ألمت نفس الوزير تألمت
لها أنفس تحيا بها وقلوب
ووالله لا لاحظت وجها أحبه
حياتي وفي وجه الوزير شحوب

وهذا يدل على أنه كان متصلا بالصاحب بعد سنة ٣٦٦ هـ ، وقد قال ابن خلكان انه مات فيها ، وهذا ينقض قوله .

٣ ــ أن القاضي الجرجاني اتصل بشمس المعالي قابوس بن وشمكير (٣) ، الذي تولى الحكم بعد سنة ست وستين وثلاثمائة .

وهذه الأدلة تؤكد ما ذهب اليه ياقوت من أن وفاة القاضي الجرجاني كانت سنة ٣٩٢ هـ .

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبي ٣/٤ .
(٢) انظر الصاحب بن عباد لخليل مردم ص ٢١ ط دمشق سنة ١٩٣٢ .
(٣) معجم الأدباء ٣٠/١٤ .

آثاره الأدبية والعلمية :

لقد ترك القاضى الجرجانى ثروة هائلة من العلم والمعرفة ، فهو أديب وشاعر وناقد ومفسر وفقيه ومؤرخ ، وهذا يد لعلى علمه الغزير واطلاعه الواسع وثقافته الرفيعة ونجد السبكى يؤرخ له فى « طبقات الشافعية » ونجد الداودى يؤرخ له فى « طبقات المفسرين » ، وتذكره كتب الأدب والنقد بما ترك من آثار أدبية رائعة ، ولكن معظم آثاره لم تصل الينا ، وان ورد ذكرها فى كثير من المصادر العربية القديمة .

فمن آثار القاضى الجرجانى (١) « كتاب تفسير القرآن » وقد ذكره ياقوت الحموى فى معجم الأدباء مما جعل صاحب طبقات المفسرين يذكره ويؤرخ له ، وله كتاب (الوكالة) وذكره السبكى فى طبقات الشافعية وأرخ له ، وله كتاب « تهذيب التاريخ » وقد ذكره ياقوت والثعالبى ، وله كتاب « الأنساب » الذى يذكر بروكلمان (٢) أن ابن خلدون عد للقاضى الجرجانى هذا المؤلف ، وله « رسائل » ذكرها له ياقوت الحموى ولكنها لم تصل الينا ، وله « ديوان شعر » أثبته ابن خلكان والسبكى ، وقد ضاع الكثير من شعره ، وما بقى لنا منه قليل لا يكون ديوانا صغيرا ، وتجد معظمه فى معجم الأدباء ويتيمة الدهر .

أما الكتاب الذى وصل الينا كاملا من مؤلفاته فهو « الوساطة بين المتنبى وخصومه » وهو كتاب قيم له منزلة كبرى فى النقد الأدبى ، ويمكن أن نشير الى السبب فى تأليفه : فقد ذكرت كتب المصادر هذا

---

(١) انظر : القاضى الجرجانى د/ أحمد بدوى ص ٤٢ و ما بعدها نقلا عن معجم الأدباء ويتيمة الدهر وطبقات الشافعية ووفيات الأعيان .

(٢) تاريخ الأدب لبروكلمان ٢/٢٧١ ط دار المعارف بالقاهرة .

السبب الذى دفع القاضى الجرجانى لتأليف هذا الكتاب ، ولخصه ياقوت فى قوله « ولما عمل الصاحب رسالته المعروفة فى اظهار مساوىء المتنبى عمل القاضى أبو الحسن كتاب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » فى شعره ، فأحسن وأبدع وأطال وأطاب وأصاب شاكلة الصواب ، واستولى على الأمد فى فصل الخطاب ، وأعرب عن تبحره فى الأدب وعلم العرب ، وتمكنه من جودة الحفظ وقوة النقد ، فسار الكتاب مسير الرياح ، وصار فى البلاد بلا جناح (١) .

وهذا يدل على أمانة القاضى العلمية ، فعلى الرغم من صداقته للصاحب بن عباد الا أنه عاب هذه المغالاة التى يحملها المتنبى أنصاره وخصومه على السواء ومنهم الصاحب بن عباد الذى يحمل للمتنبى شيئا فى نفسه فكشف عن عيوبه وأخطائه فى شعره ، ومن ثم ألف القاضى الجرجانى كتابه ليكون حكما عدلا بين الفريقين لا ينهج فيه نهج المفرطين فى المدح ، ولا الذين يدعون على الشاعر بالباطل ولكن ليبين وجه الحق فيما قاله الخصمان .

ويذكر ياقوت أن بعض أهل نيسابور وصف هذا الكتاب بقوله (٢) :

أيا قاضيا قد دنت كتبه
وان أصبحت داره شاحطة (٣)
كتاب الوساطة فى حسنه
لعقد مماليك كالواسطة

---

(١) معجم الأدباء ١٤/٢٤ وما بعدها .
(٢) معجم الأدباء ١٤/١٩ .
(٣) شاحطة : بعيدة .

شعر القاضى الجرجانى :

لقد تضافرت عوامل عدة فى تكوين شخصية القاضى الجـــرجانى الأدبية ، منها عكوفه على كتب الأدب ودواوين الشعر يحفظ منها وينهـل من معينها ، ومنها ثقافته العربية الأصيلة التى اســـــتقاها من تراث السابقين ، وبالاضافة الى حبه لفنون الأدب وعشقه للشعراء المجيدين الذين اتخذهم مثلا له فى طريقه الأدبى والفنى •

وفى مجال الشعر نراه يتخذ طريق البحترى وأبى تمام مثـــلا فى منهاجه الشعرى ويرى أنه أخذ من الأول رقة الأسلوب وعذوبته ، ومن الثانى دقة المعنى وعمق الفكرة ، وهذا يدل على فهمه للأساليب الشعرية الرائعة حيث يقول (١) :

أحيت حبيبا والوليد ففصلا
منهـــا وشـــائع نسجها تفصيلا
فأفادها الطـــائى رقة فكره
والبحترى دماثة وقبـــولا (٢)

ومن هنا كان القاضى الجرجانى شاعرا له باع طويل فى ميـــــدان الشعر ، وشهد له المؤرخون أن له ديوان شعر مشهورا فى عصره ، وهذا هو السبكى يعلق على قصيدته « يقولون لى فيك انقباض » بقـــوله : « لله در هذا الشعر ما أبلغه وأصنعه ، وما أعلى على هام الجـــــوزاء

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى ٤/١٩ •

(٢) الوشائع جمع وشيع وهو : علم الثوب • دمث : سهل • حبيب والطائى : أبو تمام •

موضعه ، وما أنفعه لو سمعه من سمعه ، وهكذا فليكن والا فلا ، أدب كل فقيه ، ولمثل هذا الناظم يحسن النظم الذى لا نظير له ولا شبيه ، وعند هذا ينطق المنصف بعظيم الثناء على ذهنه الخالص لا بالتنويه » (١) .

ومن شعره الذائع الصيت هذه القصيدة التى أشرنا اليها وفيها يقول (٢) :

يقولون لى فيك انقباض وانما
رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم
ومن أكرمته عزة النفس أكرما
وما زلت منحازا بعرضى جانبا
من الذم أعتد الصيانة مغنما
اذا قيل هذا منهل قلت قد أرى
ولكن نفس الحر تحتمل الظما
وما كل برق لاح لى يستفزنى
ولا كل من ألقاه أرضاه منعما
ولم أقض حق العلم ان كان كلما
بدا طمع صيرته لى سلما
ولم ابتذل فى خدمة العلم مهجتى
لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة
اذن فاتباع الجهل قد كان أحزما

---

(١) طبقات الشافعية ٢/٣٠٨ .

(٢) معجم الأدباء ١٤/١٧ وما بعدها ، يتيمة الدهر ٤/٢٢ وما بعدها .

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا
محياه بالأطماع حتى تجهما

وهذه القصيدة تدل على ما يتصف به القاضى الجرجانى من خلق كريم وحب للعلم وغيرة عليه ، فهو يصور فى هذه القصيدة نفس العالم الحر الذى يأبى الهوان مستشعرا كرامته الى أقصى حد ، وانه ليأبى فى شمم ما بعده شمم أن ينهل من منهل قد يصيبه منه ما يؤذى نفسه ، وأنه ليزدرى الطمع فى الدنيا الذى يتحول بالعالم الى ما يشبه دوارة الريح ، فهو يدور مع نفعه المهين ناسيا أن من شأن علمه أن يجعله مخدوما لا خادما ، ويصيره سيدا لا عبدا ذليلا ، والا كان الجهل خيرا منه وأكثر نفعا لصاحبه .. ثم يحمل حملة شعواء على من يراهم حوله من العلماء صغار النفوس الذين لم يصونوا حرمة العلم ، بل دنسوه ولطخوه بهوان أليم (١) .

ومن مقطوعاته الغزلية قوله (٢) :

أنثر على خدى من وردك
أودع فمى يقطفه من خدك
ارحم قضيب البان وأرفق به
قد خفت أن ينقد من قدك (٣)

---

(١) انظر عصر الدول والامارات ص ٥٨١ وما بعدها .
(٢) معجم الأدباء ١٤/٢٥ .
(٣) ينقد : ينشق .

ونحس بهذه العذوبة والسلاسة التى تبدو فى مقطعاته الغزليـــة الجميلة التى تحمل شعورا مرهفا رقيقا ولا ينقص من قدر هذا الشعر الرائق هذه الصنعة اللفظية التى نراها فى البيت الثانى ، فقد صدرت عنه دون تكلف ولا استكراه .

ومن شعره الذى يصدر عن عاطفة صادقة يصور فيه شغفه بالعلم ومجالسته للكتب لا يمل ذلك جل وقته ، فليس له متعـــة كمتعة العلم ، وليس له أنيس ولا جليس كالكتاب حيث يقول (١) :

ما تطعمت لذة العيش حتى
صرت للبيت والكتاب جليسا
ليس شيء أعز عندى من العلم
فلم أبتغى سواه أنيســـا ؟

ومن شعر الحكمة التى بثها خلال شعره قوله (٢) :

اذا شئت أن تستقرض المال منفقـــا
على شهوات النفس فى زمن العسر
فسل نفسك الانفاق من كنز صبرها
عليـــك وانظارا الى زمن اليسر
فان فعلت كنت الغنى وان أبت
فكل منوع بعدها واسع العـــذر

---

(١) معجم الأدباء ١٤/١٩ .
(٢) معجم الأدباء ١٤/٢٠ .

وكثيرا ما يصور القاضى الجرجانى أنفته وعزة نفسه ، ونحس بالصدق الشعورى والفنى فى هذه الأبيات التى تصور أخلاقه واعتزازه بنفسه واحتماله الشدائد فى سبيل الحفاظ على كرامته ومكانته حيث يقول (١) :

كانى ألاقى كل يوم ينوبنى
بذنب وما ذنبى سوى أننى حر
فان لم يكن عند الزمان سوى الذى
أضيق به ذرعا فعندى له الصبر
وقالوا توصل بالخضوع الى الغنى
وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبينى وبين المال بابان حرما
على الغنى : نفسى الأبية والدهر

فهو لا يهين نفسه الأبية ولا يذلها ، فدون الذل والهوان الموت ، وقبحا للانسان الذى يهون ويذل فى سبيل المال والغنى ، وفى نظر الشاعر أن مثل هذا الغنى الذى يكسبه صاحبه بالخضوع هو الفقر الحقيقى الذى يدمر حياة الانسان ، فتعسا لمن يطلبه عن هذه الطريق وتبا له .

واذا ما قرأنا شعر القاضى الجرجانى نرى أن أغراض الشعر عنده قد تنوعت بين غزل ومدح وشكوى واخوانيات وحكمة ، ويرق شعره عندما تتدفق عواطفه ، ويكون هدفه الافصاح عن وجدانه .

---

(١) معجم الأدباء ١٤/٣٣ .

وأغلب غزله مقطعات يعبر فيها عن احساس مرهف ووجدان مفعم بحب الجمال والحسن ، فهو يهيم بالخدود الناضرة والعيون الساحرة والقد الأهيف والوجه الصبوح ، وله فى الشوق الى ديار الحبيب والحنين الى أيام السعادة شعر يفيض بحرارة العاطفة والصدق الفنى ، ومن ذلك قوله يتشوق الى بغداد ويحن الى لياليها العذاب فى تصوير رائع وخيال دقيق (١) :

رب عيش صحبته فيك غضّ
وجفون الخطوب عنى نيام
فى ليال كأنهن أمان
من زمان كأنه أحلام
وكأن الأوقات فيها كؤوس
دائرات وأنسهن مدام
زمن مسعد وألف وصول
ومنى يستلذها الأوهام
كل أنس ولذة وسرور
بعدما بنتم على حرام

ويسير فى مدحه على النهج التقليدى ، فيفتتح قصائده فى المديح بالغزل ، ويتخلص منه الى المدح ، وهو يجتهد فى حسن التخلص بالربط الوثيق بين الغزل والمدح وأكثر ما بقى لنا من مدائحه فى الصاحب بن عباد والأمير قابوس بن وشكمير ، ومن مديحه فى الصاحب بن عباد من قصيدة طويلة (٢) :

---

(١) معجم الأدباء ١٤/٢٧ .
(٢) معجم الأدباء ١٤/٣٢ وما بعدها .

تهلل وجه المجد وابتسم الندى
وأصبح غصن الفضل وهو رطيب
فلا زالت الدنيـــا بملكك طلقـــة
ولا زال فيها من ظلالك طيب

وفى أخوانياته تتدفق عاطفته الصادقة ، فهو على الرغم من حبـــه للعزلة عفو كريم النفس يمنح أخوانه أجمل ما يملكه من خلق كـــــريم وخصال طيبة ، وشعره فى ذلك يدل على ما يحمل لاخوانه من حب وود ووفاء واخلاص ، ولا أدل على ذلك من قوله فى بعض اخوانه (١) :

أيا معهد الأحباب ذكرهم عهدى
ودم لى وان دام البعاد على الود
على أننى أقضى الحقوق بنيتى
وأبلغ أقصى غاية القرب فى بعدى
ويخدمهم قلبى وودى ومنطقى
وأبلغ فى رعى الزمان لهم جهدى

ولم يكن القاضى الجرجانى شاعرا فحسب بل كان ناقدا فذا يملك الذوق الفنى الرفيع ، وكما سجل فى كتابه « الوساطة » آراءه النقدية ، فقد سجل بالشعر رأيه فى الشعر القوى الرائع فرأيناه يقيسه بمقـــدار ما يتركه فى النفس من أثر ، فليس للشـــعر الا ما أثار عواطف السامع والقارىء ، ووجد فيه المشتاق صدى لعواطفه ومشاعره ومسح عـــلى قلب الغاضب فألانه وأرضاه ، وهذا يتفق مع الذوق الادبى المطبـــوع

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى ٤/٢٣ .

الذى لا يقتسر الاسلوب ولا يتكلف العبارات تكلفا (١) ، وفى ذلك يقول (٢) :

وما الشعر الا ما استفز ممدحا
وأطرب مشتاقا وأرضى مغاضبا
أطاع فلم توجد قوافيه نفرا
ولم تأته الألفاظ حسرى لواغبا (٣)

المؤثرات العامة فى شخصيته :

١ ــ اتصال القاضى الجرجانى اتصالا وثيقا بالحياة العلمية فى عصره ، فقد قطع البلاد طولا وعرضا يبحث عن أعلام العلماء يأخذ عنهم ، ويجلس بين يديهم لا يمل فى طلب العلم والمعرفة ، مهما كلفه ذلك الكثير من وقته وجهده .

٢ ــ تأثره بكتب السابقين من النقاد والأدباء ، فقد تأثر بابن سلام الجمحى فى ايمانه بأثر البيئة فى الشعر واعتماده على تحكيم الذوق الأدبى وايمانه بأن الشعر صناعة يعرفها أهل العلم كسائر الصناعات ، وتأثره أيضا بالآمدى فى تمجيده للشعر المطبوع والرجوع الى أهل الخبرة ، والذوق فى الحكم على الأعمال الأدبية (٤) .

---

(١) انظر القاضى الجرجانى للدكتور أحمد بدوى ص ٧٥ .
(٢) يتيمة الدهر للثعالبى ٤/٢٠ .
(٣) حسرى : متعبه . اللغب : الاعياء الشديد .
(٤) انظر : القاضى الجرجانى ص ٨٠ وما بعدها .

٣ ــ عمه بالقضاء وانصافه للحق واقامة للعدل بين الناس جعلته يدعو الى العدالة فى النقد وعدم اتباع الهوى ، وهو بذلك يدعو الى نقد مؤسس على الشعور الصادق لا على التقليد والتحامل ، ومن أجل هذا المبدأ القويم ألف كتابه « الوساطة » ليكون حكما عدلا بين المغالين فى حب المتنبى والمغالين فى الحقد عليه ، ومن أجل ذلك فهـــــو يحترس احتراسا شديدا فى اصدار الأحكام حتى لا تلقى جزافا ، بل لا بد من الاستقراء الشامل ليكون الاستنتاج صحيحا ، وهذا واضح فيما كتب من آراء نقدية سديدة .

٤ ــ كان للصفات النفسية والخلقية التى اتصف بها القـــاضى الجرجانى أثر واضح فى بناء شخصيته فهو أريب لبيب ، وله قدره على التحصيل والانتفاع بما يقرأ ، كما كان محبا للصدق وقول الحق ميـــالا للعدالة صبورا على المحن والشدائد ، أبيا عزيز النفس ، وهذا واضح فى شعره وكتابته .

٥ ــ الخصومات الأدبية التى شبت فى عصر القاضى الجـــرجانى حول المتنبى ، قد أوجدت مجالا للبحث العلمى الجاد والتنافس الشديد بين الأدباء والنقاد وانقسام الناس الى أحزاب منها المتحمس لأبى الطيب المدافع عنه ، ومنها المتهجم على أبى الطيب الذى يحصى له عيـــوبه وهفواته ، ومنها المعتدل الذى يحكم بالعدل والانصاف والذوق الأدبى الخالص بعيدا عن الميل والهوى ، أو التحيز والتعصب الممقوت .

٦ ــ ثقافته العربية الأصيلة التى استمدها من التراث الأدبى ، ومما كتب القدماء من مؤلفات ، ومما نظم الشعراء من دواوين شعرية ، وقد عرف بعكوفه على القراءة والميل الى العزلة وحب الاطلاع ، وقد أثر ذلك فى شخصيته الأدبية وبناء ذوقه الأدبى الرفيع .

« كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه »

موضـــوع الكتـــاب ومادته :

كتاب الوساطة مـــن الكتب الهامة التى لها قيمة كبرى فى مجـــال النقد الأدبى والقاضى الجرجانى فى كتابه (الوســـاطة) يصـــور ثقافة واسعة بالشعر العربى قديمه وحديثه ، كما يصور ذوقا شعريا مصفى لا نظير له ، وحديثه فى هذا الكتاب يصدر عن ناقد ممتاز ، بل لعله أهم ناقد فى عصره ..

ولقد نال كتاب (الوساطة) حظـــا كبيرا من الشـــهرة والذيوع ، وصفه أبو منصور الثعانبى بقوله « فسار الكتاب مسير الرياح ، وطار فى البلاد بغير جناح »(١) ويتضح من اسم الكتاب أن القاضى الجرجانى ــ كما أشرنا الى ذلك مـــن قبل ــ أراد أن ، يتوســـط فيه بين المتنبى وخصومه ، وهو توسط أقامه على محجه القضـــاء العادل ، وهدته تلك المحجة الى أن ينبغى أن لا يحكم على الشاعر بما أساء فيه ، بل يحكم عليه بما أحسنه وجوده ، اذ لكل شاعر اساءته وأغلاطه ، ولا يصح أن تتخذ أساسا للحكم عليه ، ومن أجل ذلك قدم لبحثه بأغلاط الشـــعراء قدماء ومحدثين فى ألفاظهم ومعانيهم ملاحظا ان أبا تمام يتفاوت شعره بين السهولة والاغراب اللفظى ، بينما يمتاز البحترى بالسهل الممتنع والسمح المنقاد ، وقد أشـــاد القاضى الجرجانى بالنمط الأوســـط فى الأســـلوب الذى يرتفع عن الساقط الســـوقى ويهبط عن البـــدوى الوحشى (٢) .

---

(١) انظر يتيمة الدهر للثعالبى ٤/٤

(٢) انظر : البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقى ضيف ص ١٣٣ ط دار المعارف القاهرة .

ولقد وضع القاضى الجرجانى كتاب (الوساطة) رسالة واحدة ذات مقالة واحدة لا أبواب فيها ولا فصول ، بدأها بالحديث عن التفاضل ، وانه داعية التنافس ثم يذكر بعد ذلك : موقف أهل الأدب من المتنبى وأنهم فئتان : فئة تطنب فى تقريظه ، وأخرى تجتهد فى اظهار عيوبه ، واخفاء محاسنه ، مع ان لكل عالم هفوة ولكل شاعر سقطة ، ثم يورد عقب ذلك عددا من أغاليط الشعراء ليؤكد ما يقول (١) •

ويتحدث بعد ذلك عن الشعر ، ولماذا يتفاوت فيه الشعراء من حيث الجودة والاحسان ، وان الشعر يختلف باختلاط البيئة والطبائع ، وفى رأيه أن التكلف يفسد الشعر كما نرى فى بعض شعر أبى تمام ، ويتوصل من ذلك الى تحديد الأسلوب الممتاز ، ويورد أمثلة لذلك من شعر البحترى وشعر جرير وغيرهما من الشعراء •

وكانت هذه الأشياء بمثابة المقدمات التى يمهد بها القاضى الجرجانى لحديثه عن أبى الطيب المتنبى وخصومه •

ويتحدث بعد دلك عن خصوم المتنبى ، وأن خصومه رجلان : أحدهما لا يعترف بفضل المحدثين ، وثانيهما يظلم المتنبى لأنه يعترف بفضل بعض المحدثين ، ولكنه ينكر فضل أبى الطيب حسدا أو كراهية له (٢) •

---

(١) الوساطة للقاضى الجرجانى ص ٣ ــ ١٤ تحقيق : محمد أبى الفضل ابراهيم وعلى البجاوى ط الحلبى بالقاهرة •

(٢) انظر الوساطة ص ٤٨ وما بعدها حتى ص ٧٨ •

ويذكر القاضى الجرجانى بعد ذلك ما عيب به شعر المتنبى ، ويأتى بأمثلة كثيرة لذلك ، ثم يذكر بعد ذلك أمثلة من شعره الجيد ، ويستطرد فى ذلك استطرادا كبيرا •

ويتحدث القاضى عن عيب السرقة ويحددها ، ومتى تكون سرقة ، ومتى لا تكون ولا يهتم الشاعر حينئذ بهـا ، ويضرب أمثلة كثيرة من سرقات الشعراء ، ويذكر رأيه الخاص فى السرقات الشعرية (١) •

ويورد بعد هذا الحـديث السرقات التى نسـبت الى أبى الطيب المتنبى معلقا عليها تعليقا خاليا من التحيز والميل ، ثم يعـود فيستكمل المآخذ التى أخذت على أبى الطيب المتنبى ، ويلتمس له بعض المعاذير فى بعضها ، ثم يعرض علينا الأبيات التى عيبت على المتنبى ويدرسها فى موضوعية متناهية بيتا بيتا ، ويلتمس له العذر فيما وقع فيه (٢) •

ويبدو من ذلك أن كتاب الوساطة متماسك مترابط الأجزاء بعضها مع بعض ، وأن المقدمات التمهيدية التى تحدث فيها عن الشعر وتطوره لها صلة وثيقة بالمتنبى لأنها ترى أنه من الخطأ قياس المتنبى بالشعراء الأقدمين وانمـا يقاس اذا توخى الناقد العدالة بأمثاله من الشـعراء المحـدثين •

ويذكر الدكتور أحمد بدوى أن القاضى الجرجانى جعل دفاعه عن المتنبى ألوانا ثلاثة :

أولها : مبدأ المقاصة اى وزن الحسنات بالسيئات لنرى أن جانب الحسنات أرجح •

---

(١) انظر الوساطة ص ١٧٤ وما بعدها •

(٢) انظر الوساطة ص ٤٤٦ وما بعدها •

وثانيها : أن أمثاله من عظماء الشـــعراء المحدثين لهم مثل أغلاطه فلماذا ينفرد المتنبى دونهم بالحســـاب والمؤاخذة واغفال أمـــر الجيد من شعره •

وثالثها : التماس الأعذار فيما أخطأ فيه ان كان له عذر •

ويرى الدكتور بدوى أن القاضى الجرجانى لم يقف عند الشعر الجيد لأبى الطيب يبين أسباب روعته ونواحى الجما لفيه ، ولو أنه الجيد لأبى الطيب يبين أسباب روعته ونواحى الجمال فيه ، ولو أنه فعل ذلك لكان هذا العمل من أقوى وسائل الدفاع عن المتنبى ، وكان المجال واسعا أمامه للموازنات بينه وبين غيره(١) لكنه لم يقف طويلا ليبين براعة أبى الطيب ومقدار تفوقه فى مجال الابداع الفنى •

وعلى الجملة : فكتاب الوساطة عمل رائع يستحق عليه القـــاضى الجرجانى كل تقدير واعجاب وهو مصـــدر أدبى يحتوى على نظـــرات نقدية تحليلية رائعة تدل على ذوق القاضى الجرجانى وحاسته الأدبية المرهفة وفهمه للأساليب الشعرية فهما صائبا والماما بالثقافة العربيـــة والتراث الأدبى •

أسلوب الكاتب وطريقته :

لقد كان أسلوب القاضى الجرجانى فى كتابه (الوساطة) مترسلا، حيث كان قلمه على سجيته مؤثرا الحرية فى الصياغة الفنية ، فلا نراه يلتزم ســـجعا ولا ازدواجـــا ، وما جاء منهمـــا فهو خال مـــن التكلف والاستكراه ••

---

(١) القاضى الجرجانى ص ٧٤ •

ولقد اتبع القاضى الجرجانى طريقته فى الترسل كبعض المعاصرين له ، فلم يكن القاضى وحده هو الذي تحرر من قيود السجع ، بل كان على شاكلته المرزبانى فى كتابه (الموشـــح) ، وأبو الفرج الأصفهانى فى كتابه (الأغانى) (١) ، ومن هنا فقد احتفظ القاضى الجرجانى ومن على شاكلته بشخصياتهم الأدبية ، فلم يتأثروا بالصاحب بن عباد الذى كان ولوعا بالســجع الى حــد كبير ، وبابن العميــد الذى كان ولوعا بالازدواج فى كتابته .

وما جاء فى كتاب الوساطة مما فيه سجع قليل ، فهو سجع مطبوع غير متكلف ولا مقتسر فى الكلام ، وما يلبث القاضى الجرجانى أن يدع قلمه يسترسل كما يشاء ، وينسى السـجع وغيره من ألوان الزخرف اللفظى .

ونلاحظ فى أسلوب القاضى الجرجانى أن العبارات القضائية تتدس فيه هنا وهناك نظرا لعمله فى القضاء ، فنراه يقول « عجلت بالحكم قبل استيفاء الحجة ، وأبرمت القضاء قبل امتحان الشهادة » ، ويقول (قد وفينا لك بما اقتضاه شرط الضمان وزدنا ، وبرأنا اليك مما يوجبه عقد الكفالة وأفضلنا » (٢) وما الى ذلك .

ونلاحظ فى طريقة القاضى الجرجانى أنه يقف من القضايا التى يعرض لها موقف القاضى الذى يفصل فى الخصومة ، وهذا واضح من الصــفحات الأولى للكتاب حيث يقــول فى المقــدمة (وما زلت أرى

---

(١) القاضى الجرجانى ص ٧١ والنثر الفنى فى القرن الرابع للدكتور زكى مبارك ١١٣/١ ط دار الكتب المصرية .

(٢) الوساطة للقاضى الجرجانى ص ٧٩ ، ١٧٣ .

أهل الأدب مند ألحقتنى الرغبة بجملتهم ، ووصلت العناية بينى وبينهم فى أبى الطيب أحمد بن الحسين المتنبى فئتين : من مطنب فى تقريظه ، منقطع اليه بجملته ، منحط فى هواه بلسانه وقلبـــه ، يتلقى مناقبه اذا ذكرت بالتعظيم ، ويشيع محاسنه اذا حكيت بالتفخيم ، ويعجب ويعيد ويكرر ، ويميل على من عابه بالزراية والتقصير ، ويتناول من ينقصـــه بالاستحقار والتجهيل ، فاذا عثر على بيت مختل النظام أو نبه على لفظ ناقص على التمام ، التزم من نصرة خطئه وتحسين زلله ، وما يزيله عن موقف المعتذر ، ويتجاوز به مقام المنتصر ــ وعائب يريد ازالته عن رتبته ، فلم يسلم له فضائله ، ويحاول حمله عن منزلة بوأه اياها أدبه، فهو يجتهد فى اخفاء فضائله ، واظهـــار معايبه وتتبع سقطاته واذاعة غفلاته ، وكلا الفريقين اما ظالم له أو للأدب فيه) (١) .

وكان من طريقة القاضى الجرجانى أن يكون (معتدلا فى حكمه) ، فلا ينهج منهج المفرطين فى المدح ولا المبالغين فى الكره ، بل كان يبين وجه الحق فيما قاله الخصمان ، ويقف موقف الحكم العـــدل بينهما ، بمـــا يمليه عليه ضـــميره وذوقه الأدبى الرفيع ، ولذلك نراه يدعو الى العدالة فى النقد الأدبى ، وعدم اتباع الهوى ، ويدعو كذلك الى نقـــد مؤسس على الشعور الصادق لا على التقليد والتحامل .

وكان من طريقته فى تناول القضايا النقدية (الصراحة والتحرر من القيود فى القول) ، فلا يحـــاول الغموض ولا المغالطة ولا الابهـــام فى قوله ، ومن ذلك ما صرح به أن شعراء الجاهلية يخطئون ، وأن النحاة يركبون الصعب لتأويل الخطأ من غير أن يكون ثمة باعث سوى شـــدة

---

(١) الوساطة للقاضى الجرجانى ص ٣ .

اعظام المتقدم • وفى تلك النظرة الصريحة المتحررة ما يجعل الناقد يصدر حكمه كما يهدى اليه عقله وذوقه المصقول لا يحول بينه وبين ما يريد قول ما يعتقده ايمان بقداسة الأقدمين (١) •

وكان من سماته أيضا أن يلتزم بالموضوعية فى نقده مع عمق النظرة والمقدرة على التحليل والتعليل ، وتبيين ما فى الشعر من مظاهر الانحراف ، وتوضيح ذلك وتصويره وايمانه الوثيق بالشعر المطبوع الذى لا تكلف فيه ، ولا يعتمد على الزخرف اللفظى والزينة المتكلفة التى تذهب ، برونق الشعر وجماله ••

الجانب النقدى فى كتاب الوساطة :

للقاضى الجرجانى نظرات نقدية تحليلية تدل على فهمه للأساليب الشعرية فهما دقيقا ، يعتمد على الذوق المصقول بالدربة والخبرة وعمق الدراسة •

ومن الجوانب النقدية الهامة التى صاحبت القاضى الجرجانى فى تحليله ونقده (تطبيق مذهب التأثر والذوق) ، فهو يعتمد اعتمادا كبيرا فى تقدير الأثر الأدبى على ما يحدثه هذا الأثر فى النفس ، فاذا حرك مشاعر السامع وأثر فيه فهو أثر جيد ، واذا لم يحرك مشاعر الانسان فهو أثر ردىء ••• وهذا ما طبقه القاضى الجرجانى حيث يقول معلقا على أبيات للبحترى « تأمل كيف تجد نفسك عند انشاده ، وتفقد ما يتداخلك من الارتياح ، ويستخفك من الطرب ، اذا سمعته

---

(١) القاضى الجرجانى ص ٩١ وما بعدها •

وتذكر صـــبوة ان كانت لك ، تراه ماثلة لضـــميرك ومصـــورة تلقـــاء نظرك » (١) ٠

فهو يعتمد فى حكمه على الأثر الأدبى على مقدار احساس السامع بالطرب ومدى اثارته لعواطفه ٠

ومن هنا نرى القاضى الجرجانى يشيد بجمال الأسلوب المطبوع لأنه هو الذى يحمل قوة التأثير فى نفوس السامعين ، ومن ثم فالشعر الذى يحتاج الى الجدل والمحاجة لا يؤثر فى النفوس ، وانمـــا يحرك العقل ويعمل الفكر ويدعو الى كد الذهن واجهاد الخاطر ٠

ويرى القاضى الجرجانى أن الذى يحكم بجودة الشعر أو رداءته انما هم النقاد الذين آتاهم الله ذوقا خاصا صقله التهذيب وغذته الدربة والحنكة ، ووهبوا الدقة فى الفطنة والصفاء فى القريحة والمقدرة على الغوص ، ومن ثم يعتمد هؤلاء النقاد فى اصدار حكمهم على ما منحوه من الذوق المرهف المصقول بالدراسة والخبرة ، فيتعرفون على ما فى النص الأدبى من أسباب الجمال وهم « لذلك يستطيعون تقويم الشعر ومعرفة جيده من رديئه ، ويستطيعون ابراز الأسباب التى بنوا على أساسها هذا الحكم الصـــائب فيكشـــفون عن أسرار الجمال أو القبح فى هذا الأثر الأدبى ٠٠

والذوق وحده لا يكفى عند القاضى الجرجانى فى الحكم على الآثار الأدبية بل الذوق المثقف الذى أدمن الرياضـــة ، وكان صاحبه شـــديد الفطنة صافى القريحة بعيد الغوص (٢) ٠

---

(١) الوساطة للقاضى الجرجانى ص ٢٦ ٠

(٢) الوساطة ص ٤٢٧ ٠

وفى رأى القاضى الجـرجانى أن أشـد ألوان النقـد هو الذى يحتاج الى هذا الذوق المهذب المثقف الموهوب وادمان الرياضـة . أما أقـل الناس حظا فى النقـد فهؤلاء الذين يقفون عند الأمـور التى لا تحتاج الى ذوق ، كالاقتصار على سلامة الوزن واقامة الاعراب وأداء اللغة ، وما فى الكلام من تجنيس ومطابقة وترصيع (١) ، وما الى ذلك ، فهم يحكمون فى اطار الشكل العام للغة دون النظر فى الأسلوب الشعرى المختل أو النسج المهلهل وعدم مشاكله الألفاظ للمعانى ..

ومن القضايا الهامة التى درسها القاضى الجرجانى بدقة متناهية (قضية السرقات الشعرية) ، ويعد القاضى الجـرجانى التعمـق فى معرفة هـذا الباب ضروريا لمن يريد أن يعـد من جهابذة الكلام ونقاد الشـعر .. وخلاصة رأيه فى السرقة (٢) : أن الأمـور المتقررة فى النفوس التى يشترك فيها الشـاعر والمفحم كتشبيه الحسن بالبـدر والشمس لا سرقة فيهـا لأنها مشترك عـام الشركة ، واذا كان المعنى مخترعا مبتدعا ، ولكنه صار مستفيضا متداولا لا يعد مسروقا كذلك ، لأنه استـفاض على ألسنة الشـعراء ، ودار بينهـم كتشبيه الفتـاة بالغزال فى جيدها وعينيها .

ولكن تفاضل الشعراء فى المعانى المتداولة يكون بزيادة يهتـدى اليها أحدهم دون غيره ، فالشاعر المبدع يستخدم المعنى المتداول فى شىء

---

(١) الوساطة للقاضى الجرجانى ص ٢٢٤ وما بعدها .
(٢) انظر : القاضى الجرجانى ص ٦٠ وما بعدها . وانظر الوسـاطة ص ١٧٩ وما بعدها .

من الجدة فتجعله فى صـــورة المبتدع المخترع ، وبهذه الزيادة يصبح ملكا لصاحبه (١) •

واذا أخذ الشاعر معنى لغيره فزاد عليه زيادة حسنة أو اختصره ان كان مطولا فلا عيب عليه فيما فعل ، وانما العيب فى رأى القـــاضى الجرجانى نقل المعنى والكثير من الألفاظ (٢) •

وينبغى ألا يقصر الناقد السرقة على ما ظهر دون ما كمن ، ثـــم يشير القاضى الى تفنن الشعراء فى السرقة ، فربما كان البيت للنسيب فيأخذ الشاعر معناه فى بيت مدح وهكذا ، ومن الواجب على الناقد أن يتثبت قبل أن يحكم بالسرقة ، وألا يحكم بها لمجرد التشابه بين الألفاظ أو للعصبية والهوى •

ويذكر القاضى الجرجانى كثيرا من النمـــاذج التى تؤكد قوله ، ويقـــوم بالموازنة بينها فى حاســـة فنية دقيقة ، والقـــارىء لكتـــاب (الوســـاطة) يجد عند القاضى الجرجانى مقدرة عجيبة على الاستقصاء والاتيان بالنماذج الدالة التى تدل على فهم واع للشـــعر العـــربى ، وصدق القاضى الجرجانى حينما افتتح حديثه عن السرقات بقـــوله : « هذا باب لا ينهض به الا الناقد البصـــير والعالم المبرز ، وليس كـــل من تعرض له أدركه ، ولا كل من أدركه استوفاه وأكمله ، ولست تعد من جهابذة الكلام ونقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه ، وتحيط علما برتبه ومنازله ، فتفصـــل بين السرقة والغصب وبين الاغـــارة

---

(١) الوساطة ص ١٨١ وما بعدها •
(٢) الوساطة ص ١٨٥ •

والاختلاس ، وتعرف الالمام من الملاحظة ، وتفـرق بين المشترك الذى لا يجـوز ادعاء السرقة فيه، والمبتذل الذى ليس أحد أولى به ، وبين المختص الذى حازه المبتدىء فملكه وأحياه السابق فاقتطعه ، فصـار المعتدى مختلسا سارقا والمشارك له محتذيا تابعا ، وتعرف اللفظ الذى يجوز أن يقال فيه : أخذ ونقل ، والكلمة التى يصح أن يقال فيهـا هى لفلان دون فلان » (١) .

ويرى القاضى الجرجانى أن السرقة داء قديم ، وكان أكثره ظاهرا كالتوارد ثم تفنن المحدثون فى اخفائه بالنقل والقلب وغيرهما ، الا أننا نراه يلتمس العذر لمعاصريه عن كثرة سرقاتهم فيقول « ومتى أنصفت علمت أن أهـل عصرنا ثم العصر الذى بعـدنا أقرب فى السرقة الى المعذرة وأبعد من المذمة لأن من تقدمنا قد استغرق المعانى وسبق اليها وأتى على معظمها ، وانما نحصل على بقايا : اما أن تكون تركت رغبة عنها واسـتهانة بهـا ، أو لبعد مطلبها واعتياص مرامها وتعذر الوصـول اليهـا » (٢) .

والقاضى الجرجانى لا يمنع استفادة المحدث من أفكار سابقيه ، الا انه يشترط الزيادة فى المعنى أو التجويد فى الأسلوب ، وهـو رأى منصف غير متزمت يدل على وعى تام وادراك جيد للأساليب الشعرية ، ومن هنا فهو يدعو الشعراء الى الاعتماد على أنفسهم ، والتفتيش عن مواهبهم حتى يبتكروا المعانى وينقبوا عنها ، فيدعوهم هذا الى صقل الفن فى نفوسهم واصابة المحز فى كل ما يقولون .

---

(١) الوساطة للقاضى الجرجانى ص ١٨٣ ط الحلبى .
(٢) الوساطة ص ٢١٤ .

ومن الأشياء التى عرضها القاضى الجرجانى الخصائص التى لابد منها لانتاج الشعر ، وأنها : الطبع والذكاء والرواية ، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الاحسان (١) •

ويختلف الشعر باختلاف حظوظ الشعراء من هذه الأمور الأربعة التى ذكرها القاضى الجرجانى ، ومن هنا يختلف الشعراء فى الاجادة والتبريز ••

وعند القاضى الجرجانى يختلف الشعر رقة وصلابة لأمور ثلاثة (٢) :

أولها : اختلاف الطبائع وتركيب الخلق ، فان سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلق ، وهذا أمر ظاهر فى كل العصور والأزمان •

وثانيها : البداوة فمن شأنها أن تحدث بعض ذلك ، ولذلك تجد شعر عدى وهو جاهلى أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة لملازمة عدى للحاضرة وبعده عن جلافة البدو وجفاء الأعراب •

وثالثها : الغرض الشعرى ، فانك ترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم والمحب الولهان ، ومن ثم يختلف الأسلوب الشعرى رقة وصلابة حسب الغرض الذى يقال فيه ••

---

(٢) الوساطة ص ١٤ •

(١) انظر : القاضى الجرجانى ص ٥٢ وما بعدها ، والوساطة ص ١٧ وما بعدها •

ولقد وضع القاضى الجرجانى المقاييس التى تصنع (المثل الأعلى للشعر) ، وذلك يتحقق بشروط تكون فى اللفظ والأسلوب وصفات يتسم بها المعنى ، فلا يكون المعنى مبتذلا وأن يكون صحيحا شريفا مصيبا فى الوصف مقاربا فى التشبيه انسانيا يجرى على الألسن مثلا وحكمة (١) ، ويريد القاضى بعدم الابتذال وصفة الشرف أن يكون المعنى بعيدا عن المعانى الدارجة الشائعة بين الناس ، ويضرب لذلك مثلا بقول البحترى (٢) :

أجدك ما ينفك يسرى لزينبا
خيال اذا آب الظلام تأوبا (٣)
سرى من أعالى الشام يجلبه الكرى
هبوب نسيم الروض تجلبه الصبا
وما زادنى الا ولهت صبابة
اليه والا قلت : أهلا ومرحبا
وليلتنا بالجزع بات مساعفا
يرينى أناة الخطو ناعمة الصبا
أضرت بضوء الفجر والبدر طالع
وقامت مقام البدر لما تغيبا
ولو كان حقا ما أتاه لأطفأت
غليلا ولا فتكت أسيرا معذبا

---

(١) الوساطة للقاضى الجرجانى ص ٣٢ وما بعدها .
(٢) الوساطة ص ٢٥ .
(٣) تأوب : رجع ليلا .

وحينما ننظر فى أبيات البحترى لا نرى معانية مما تلوكه ألسنة العوام ، حتى ان الشاعر عندما أراد أن يعقد صلة بين محبوبته وبين البدر لم يلجـأ الى التشبيه المألوف ، ولكنه أحس بحبيبته أجمـل من البدر ، فاذا نظر اليها والبدر يتلألأ فى السماء يرى وجهها أبهى منه طلعة وأجمل ضياء ، فلا عجب أن أضاء له وجهها ظلمات الليل بعد أن غرب بدر السماء .

ومن الأشياء التى تناولها القاضى الجرجانى وعنى بها (الأسلوب) وانمـا يهتم به القاضى الجـرجانى لأثره القوى فى النفس ، فجمـال الاسلوب فى رأيه هو أول ما يأسرك فى الشـعر ويملك عليك نفسـك ، أما المعنى فانه يؤثر فيك بعد أن تقف لتفتش عنه وتحاول الوصـول اليه ، وفى ذلك يقول القاضى الجرجانى « واذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب وعظم غنائه فى تحسين الشعر ، فتصفح شعر جرير وذى الرمة فى القـدماء ، والبحترى فى المتأخرين ، وتتبع نسيب متيمى العرب ومتغزلى أهـل الحجـاز كعمـر وكثير وجميل ونصـيب وأضرابهم ..

ثم أنظروا حكم وأنصف ، ودعنى من قولك : هل زاد على كذا ؟ وهل قال الا ما قال فلان ؟ فان روعة اللفظ تسبق بك الى الحكم ، وانما تفضى الى المعنى عند التفتيش والكشف » (١) .

ويؤثر القاضى الجرجانى من أنواع الأساليب (الأسلوب السهل الرشيق) ولكنه لا يريد بالسهل الضعيف الركيك ، ولا بالرشيق اللين

---

(١) الوساطة للقاضى الجرجانى ص ٢٣ وما بعدها .

المؤنث ، بل يريد النمط الأوسط ، وهو ما ارتفع عن الساقط السوقى وانحط عن البدوى الوحشى، ويؤثر كذلك الأسلوب الطبيعى الذى يسترسل فيه صاحبه مع الطبع المهذب المصقول الذى شحذته الرواية وصقله الأدب ، وعذته الفطنة ، وألهم صاحبه الفصل بين الجيد والردىء والحسن والقبيح (١) .

وليس معنى هذا أن القاضى الجرجانى يفضل المطبوع كله على المصنوع كله ، ولكنه ربما وجد فى الشعر الذى دخلت فيه الصنعة جمالا وفنونا من الحسن يرتاح اليها كما يرتاح للشعر المطبوع الذى يسترسل فيه صاحبه مع الطبع ، ويبتعد فيه عن الصنعة والزخرف اللفظى ، ومن ثم نرى القاضى الجرجانى يعجب بأبيات أبى تمام على الرغم مما فيها من الصنعة وهى التى يقول فيها (٢) :

دعنى وشرب الهوى يا شارب الكاس
فاننى للذى حسيته حاسى
لا يوحشنك ما استعجمت من سقمى
فان منزله من أحسن الناس
من قطع ألفاظه توصيل مهلكتى
ووصل ألحاظه تقطيع أنفاسى
متى أعيش بتأميل الرجاء اذا
ما كان قطع رجائى فى يدى ياسى

---

(١) الوساطة ص ٢٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٣١ .

وقد حكم القاضى الجرجانى على هذه الأبيات بقوله « لم يخل بيت منها من معنى بديع وصنعة لطيفة ، طابق وجانس واستعار فأحسن وهى معدودة فى المختار من غزله ، وحق لها ، وقد جمعت على قصرها فنونا من الحسن وأصنافا من البديع ثم فيها من الاحكام والمتانة والقوة ما تراه » .

ولكن الشىء المهم فى الأسلوب الجيد عند القاضى الجرجانى هو خلوه من التعقيد ، وفساد الترتيب ، واضطراب النسج والغموض (١) ، مع شدة تماسك الأسلوب وملاءمة الألفاظ للمعانى وفق الغرض الذى يساق فيه الكلام .

« نماذج مختارة من كتاب الوساطة »
« توضح أسلوب القاضى الجرجانى »
وطريقته

١ ــ الشعر بين القدماء والمحدثين (٢) :

يقول القاضى الجرجانى « ان الشعر علم من علوم العرب ، يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له ، وقوة لكل واحد من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الاحسان ولست أفضل فى هذه القضية بين القديم والمحدث ، والجاهلى والمخضرم ، والأعرابى والمولد ألا أننى

---

(١) الوساطة ص ١٧٥ .
(٢) الوساطة ص ١٤ وما بعدها .

أرى حاجة المحدث الى الرواية أمس ، وأجده الى كثرة الحفظ أفقر ، ماذا استكشفت عن هذه الحالة وجدت سببها والعلة فيها أن المطبوع الذكى لا يمكنه تناول ألفاظ العرب الا رواية ، ولا طريق للرواية الا السمع ، وملاك الرواية الحفظ ، وقد كانت العرب تروى وتحفظ،ويعرف بعضها برواية شعر بعض ، كما قيل : ان زهيرا كان راوية أوس ، وأن الحطيئة راوية زهير ، وان أبا ذؤيب راوية ساعدة بن جويرية ، فبلغ هؤلاء فى الشعر حيث تراهم ، وكان عبيد راوية الأعشى ، ولم تسمع له كلمة تامة ، كما لم يسمع لحسين راوية جرير ، ومحمد بن سهل راوية الكميت والسائب راوية كثير ، غير أنها كانت بالطبع أشد ثقة واليه أكثر استئناسا .

وأنت تعلم أن العرب مشتركة فى اللغة واللسان وأنها سواء فى المنطق والعبارة ، وانما تفضل القبيلة أختها بشىء من الفصاحة . ثم قد تجد الرجل منها شاعرا مفلقا ، وان عمه وجار جنابه ولصيق طنبه بكيئا مفحما (١) ، وتجد فيها الشاعر أشعر من الشاعر والخطيب أبلغ من الخطيب ، فهل ذلك الا من جهة الطبع والذكاء ، وحدة القريحة والفطنة » .

٢ ــ حاجة النقد الى الذوق المثقف (٢) :

يقول القاضى الجرجانى « الكلام منثوره ومنظومه ومجمله ومفصله تجد منه المحكم الوثيق ، والجزل القوى ، والمصنع المحكم ، والمنمق

---

(١) الطنب : حبل طويل تشد به الخيمة . البكىء : قليل الكلام . المفحم : من لا يستطيع أن يقول الشعر .

(٢) الوساطة للقاضى الجرجانى ص ٢٢٧ وما بعدها .

الموشح ، قد هذب كل التهذب وتثقف غاية التثقيف ، وجهد فيه الفكر ، وتعب لأجله الخاطر ، حتى احتمى ببراءته عن المعايب ، واحتجز بصحته عن المطاعن ، ثم تجد لفؤادك عنه نبوة ، وترى بينه وبين ضميرك فجوة ، فان خلص اليهما فبأن يسهل بعض الوسائل اذنه ، ويمهد عندهما حاله ، فأما بنفسه وجوهره وبمكانه وموقعه فلا •

هذا قولى فيما صفا وخلص وهذب ونقح ، فلم يوجد فى معناه خلل ، ولا فى لفظه دخل ، فأما المختل المعيب والفاسد المضطرب فله وجهان : أحدهما ظاهر يشترك فى معرفته ، ويقل التفاضل فى علمه ، وهو ما كان اختلاله وفساده من باب اللحن والخطأ من ناحية الاعراب واللغة وأظهر من هذا ما عرض له ذلك من قبل الوزن والذوق ، فان العامى قد يميز بذوقه الأعاريض والأضرب ، ويفصل بطبعه بين الأجناس والأبحر ، ويظهر له الانكسار البين والزحاف السائغ • والآخر غامض يوصل الى بعضه بالرواية ، ويوقف على بعضه بالدراية ، ويحتاج فى كثير منه الى دقة الفطنة وصفاء القريحة ولطف الفكر وبعد الغوص •

وملاك ذلك كله وتمامه الجامع له ، والزمام عليه صحة الطبع وادمان الرياضة ، فانهما أمران ما اجتمعا فى شخص فقصرا فى ايصال صاحبهما عن غايته ، ورضيا له بدون نهايته •

وأقل الناس حظا فى هذه الصناعة من اقتصر فى اختياره ونفيه ، وفى استجادته واستسقاطه على سلامة الوزن ، واقامة الاعراب ، وأداء اللغة ، ثم كان همه وبغيته أن يجد لفظا مروقا ، وكلاما مزوقا ، قد حشى تجنيسا وترصيعا ، وشحن مطابقة وبديعا أو معنى غامضا قد تعمق فيه مستخرجه ، وتغلغل اليه مستنبطه ، ثم لا يعبأ باختلاف الترتيب واضطراب النظم وسوء التأليف ، وهلهلة النسج ، ولا يقابل بين الألفاظ ومعانيها ، ولا يسبر ما بينهما من نسب ، ولا يمتحن

ما يجتمعان فيه من سبب ، ولا يرى اللفظ الا ما أدى اليه المعنى ، ولا الكلام الا ما صور له الغرض ، ولا الحسن الا ما أفاده البـديع ، ولا الرونق الا ما كساه التصنيع » .

٣ ــ تحامل النقاد فى نقد المحدثين (١) :

يقول القاضى الجرجانى « ولو أنصف أصحابنا هؤلاء لوجـــد يسيرهم احق بالاستكثار ، وصغيرهم أولى بالاكبار ، لأن أحدهم يقف محصورا بين لفظ قد ضاق مجاله ، وحذف أكثره ، وقل عدده وحظـــر معظمه ، ومعان قد أخذ عفوها ، وسبق الى جيدها ، فأفكاره تنبث فى كل وجه وخواطره تستفتح كل باب ، فان وافق بعض ما قيل ، أو أجاز منه بأبعد طرف ، قيل : أسرق بيت فلان وأغار على بيت فلان ؟

ولعل ذلك البيت لم يقرع قط سمعه ، ولا مر بخلده ، كأن التوارد عندهم ممتنع ، واتفاق الهواجس غير ممكن ، وان افترع معنى بكرا أو افتتح طريقا مبهما ، لم يرض منه الا بأعذب لفظ وأقـــربه الى القلب وألذه فى السمع ، فان دعاه حب الاغراب وشهوة التنوق (٢) الى تزيين شعره ، وتحسين كلامه ، فوشحه بشىء من البديع وجـــلاه ببعض الاستعارة قيل : هـذا ظاهر التكليف بين التعسف ناشـف الماء قليل الرونق ، وان قال ما سمحت به النفس ورضى به الهـاجس قيل : لفظ فارغ وكلام غسيل ، فاحسانه يتأول وعيوبه تتمحل وزلته تتضـاعف وعـذره يكذب » .

والله ولى التـوفيق .

دكتور/على محمد على طلب
مدرس الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بأسيوط

---

(١) الوساطة للقاضى الجرجانى ص ٥١ .
(٢) تنوق فى أمره : تجود وبالغ فيها .